اخي خلِّ حيِّزذي باطلٍ وكن للحقائق في حيِّزِ
فما الدار دار مقامٍ لنا وما المرءُ في الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا علي اقلَّ من الكلم الموجز
وهل نحن الاَّ خطوط وقعن علي نقطة وقع مستوفز
محيط السماوات اولى بنا فماذا التنافس في مركز

فتباحثوا الآن في مسائلكم واذكروا ان عمران مدننا وخرابها متوقفان على نتيجة بحثكم . وانبدأ اولاً بمشكلة العمال وارباب الاموال وان كانت هذه المسائل كلها مرتبطة بعضها ببعض

الفصل السادس

الجلسة الاولى

المال ومشاكله

فساد حينئذ في الحديقة سكوت تام لم يُسمع في اثنائه سوى حفيف الاوراق وهمس بعض السيدات اللواتي كن جالسات على مقعد في زاوية مقابلة للزاوية التي جلس فيها حليم ورفيقه . وكان حليم قد بدا يرمي ببصره الى هؤلاء السيدات منذ لمح وجودهن هناك لعله يجد ضالته بينهن

دعوى زعيم العمال

وبعد دقيقة تقدم زعيم من زعماء حزب العمال وقال مفتتحاً البحث

ـ لقد احسنتم في تخصيصكم الجلسة الاولى بمشاكل العمال واصحاب الاعمال لان هذه اكبر المشاكل في الحقيقة . ومتى حللناها حللنا معها سواها . ولكن لا سبيل الى حلها الا بطريقة واحدة . وهي اشراك العمال في ربح الاعمال . فاننا الآن نخدم اصحاب الاعمال كما يخدم العبد سيده . واسعدنا حظاً واعظمنا قدرًا يتناول في الشهر مائة فرنك . اي يأخذ في السنة اجرة لعمله ١٢٠٠ فرنك . فاذا افترضنا ان عددنا في العمل ٣٠ عاملاً كان مجموع ربحنا جميعاً في العام ٣٦ الف فرنك . على حين ان ذلك العمل يربح في كل عام مليون فرنك ربحًا مجرداً . وكل هذه القيمة تذهب وتنصبُّ في صندوق صاحب المعمل مع اننا نحن

السبب في ربحها . فاية عدالة عند الله والناس تُجيز هذا الامر . واي دين يرضى بان يسعى مائة وواحد ياكل

« ولكن فلنترك مسألة الربح جانباً ولننظر الى مسألة اخرى . وهي ان بين العمال المستخدَمين قوماً لا يتناولون في اليوم اكثر من فرنك واحد اجرة لهم . فكيف يمكن ان يكفيهم هذا الفرنك خصوصاً اذا كان لهم اولاد عليهم القيام باودهم . أليس ذلك عبارة عن ضرب الشقاء والذلة عليهم مدى العمر

« ثم ان العامل قد يمرض وقد يعجز وقد يموت . فماذا يحل به وبعائلته اذا كان قد صرف حياته كلها في خدمة صاحب العمل ولم يعد قادراً في مرضه وفي آخر عمره ان يكسب رزقه بعرق جبينه . ايموت جوعاً هو وعائلته . ام يدور في المدينة يستعطي

« لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الانسانية والاخاء البشري ان تنصفونا فاننا نحن الاكثرية في البلاد . وبدوننا لا تقدرون ان تصنعوا شيئاً . فنحن نحارب لرد غارة العدو . ونحن نفلح الارض لنخرج منها القوت والغذاء . ونحن نخدم في دوائر الحكومة والمحال العمومية والخصوصية . ونحن ندير المصانع لصنع المصنوعات ونسج الانسجة . فحرام ان نصنع كل شيء وعلى ظهورنا تُلقى كل الاحمال ثم تترك الحكومة فريقاً قليلاً من اصحاب الاموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها ويسخّر لنفسه الامة كلها

فصاح به حينئذ صائح من فريق المال

ـ ولكن ماذا تريدون ان تصنع الحكومة . هل من حقها ان تتداخل بينكم لتجبر ارباب الاعمال على زيادة اجوركم او مقاسمتكم ارباحهم . ألا تعلمون ان لاصحاب الاموال الحق المطلق في التصرف باموالهم واملاكهم كما يريدون . وان الحكومة لا يمكنها التعرض لحق الملكية لانه من الحقوق الطبيعية التي لا تُنقض

فاجاب الخطيب زعيم العمال

ـ هذه شنشنة عرفتها من اخزم . فكأنكم نسيتم ان هنالك مذهبين متناقضين واحد معكم وواحد عليكم . ومما يحق لنا الفخر به نحن العمال الصغار ان مذهبنا في هذه المعضلة موافق لمذهب جميع شارعي الاديان من موسى الى يسوع الى محمد . فان هؤلاء الكواكب الثلاثة الذين انارو سماء الشرق والعالم قاطبة لو عادوا اليوم الينا لكانوا من حزبنا . ذلك لانهم يعلمون ان كل هيئة اجتماعية تُبنى على ظلم الفئة الكبرى وراحة الفئة الصغرى هيئة فاسدة ستسقط لا محالة . فاذا كان في حزبكم فلاسفة كبار وعلماء اعلام ففي حزبنا من هم

فوق العلماء والفلاسفة . ثم هل تريدون منا فلاسفة فاسمعوا رأي الفيلسوف كارل ماركس

فضحك هنا بعض فريق المال وقال احدهم

ـ ما شاء الله . تستشهدون باشدّ انصاركم غلوًا

فقال الزعيم

ـ لا بل نستشهد بفيلسوف من الفلاسفة رأيه يناقض رأيكم في الملكية . فانكم تقولون ان ارباب الاموال مطلقو التصرف في معاملهم ومصانعهم ومتاجرهم . اما نحن فنقول لكم مع هذا الفيلسوف انكم في خطاء عظيم . فان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها واراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالانهر والابحر والهواء . ولذلك لا يجوز ان تكون ملكاً لفرد ايًا كان بل هي ملك لجميع الامة . فعلى الامة اذًا ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بين ابنائها . اي ان الحكومة تجعل نفسها التاجر الكبير الوحيد الذي تنحصر في يده تلك المتاجر والمصانع والمزارع وتستخدم فيها افراد الامة وتعطيهم اجرتهم من تلك البضائع نفسها اي من عين المال كلاً بقدر حاجته وكفاءته . والعامل يستطيع ان يستبدل البضائع التي تجتمع عنده باي بضاعة احتاج اليها . ـ هذا ما يراه بعضهم عدلاً وانصافًا . ونحن لا نطلب منكم كل هذا فاننا نترك لكم مصانعكم ومعاملكم ومتاجركم واراضيكم . وانما نطلب منكم ان تعطوا نصف ربحها في كل عام للعمال والمستخدمين الذين تخدّمونهم فيها وتبقوا النصف الثاني لكم

« ولا تقولوا اننا قد طلبنا شيئًا كثيرًا فاننا لا نطلب الا حقوقنا . لقد كرهت نفوسنا الخدمة بالاجرة كالاجراء . لقد كرهنا هذه العبودية الجديدة التي اخترعها التمدن الجديد . فاذا لم تنصفونا وتريحونا منها فاعلموا اننا نحذوحذو شمشون اذ نأخذ باعمدة الهيئة الاجتماعية ونشدها قائلين « علينا وعلى الجميع يازب » فيسقط البناء علينا وعليكم .

« ايها الاخوة . ان نور الشمس ونسيم الصباح وحنان الامهات ورغد العيش ومسرّات الاجتماع وراحة البال ـ كلها لم تخلق فقط لارباب الاموال . فان الله العادل خلقها لجميع البشر على السواء . ونحن معشر الفقراء المساكين من جملة البشر . فانظروا الينا وارحمونا . صدقونا ان لنا نفوسًا كنفوسكم تتألم من المصائب والفقر والشقاء . وان لنا اولادًا كاولادكم ونساء كنسائكم يجب علينا سدّ حاجاتهم . صدقونا ان الطبيعة ـ تلك الطبيعة القاسية الظالمة ـ لم تخصنا بخواص الجماد . فانها من ـ سوء حظنا ـ جعلت لنا معدًا تتألم من الجوع . وقوى تخور اذا لم تُغذَّ . ونفسًا تفضل الجحيم احيانًا على هذه الحياة . وهذا ما يدفعها مرارًا الى اقصى حدود الوحشية : كالفوضوية وما اشبهها . ففي ايديكم الآن يا ابناء

الوطن خراب بلادكم او عمرانها »

وما سكت زعيم العمال حتى قامت ضجة في صفوف اهل المال فصاح احدهم : يتهددوننا بالفوضوية . وصاح آخر : لا نخافهم فوراءنا جيش الحكومة . ولكن لم يلبث ان نهض زعيم اهل المال واشار الى رفاقه بالسكوت ثم اخذ يقول

دعوى اهل المال

ايها السادة

ـ مسألتنا مع عمالنا مسألة قديمة منذ وجود الانسان في هذه الارض . فمنذ وجد فيها رجلٌ نشيط قوي مدبر عامل ورجل ضعيف ساذج مهمل تسلّط الاول على الثاني واستخدمه في ما فيه مصلحتهما معاً . وان هذا الاتفاق بين القوي والضعيف ـ بين الرأس المدبر الآمر والجسد المدار المأمور ـ بقي وثيقاً وطيداً الى ذلك اليوم الذي قام به الحسد والطمع يحرّضان الضعيف على القوي ويُغريانه بان يُعطل اعماله ان لم يشاركه فيها . فالحسد والطمع سبب كل هذا الخلاف

«ولقد كان العمال قبلاً يشكون من ان اجورهم قليلة وشغلهم كثير . فانهم كانوا يعملون من شروق الشمس الى ما بعد غروبها واسعدهم حظاً كان يتناول فرنكين في النهار . فرأينا ان نخفف عنهم فجعلنا اوقات عملهم ٨ ساعات في النهار (١) وابلغنا راتب الواحد منهم الى مائة فرنك . ثم انشأنا لهم منازل صحية رخيصة الاجرة ليقيموا فيها . واعتنينا بنسائهم واولادهم في اوقات الولادة والمرض . ولكن كل هذا لم يُقنعهم بل تدرّجوا من طلب الى طلب حتى وصلوا الى طلب مشاركتنا في مصانعنا ومتاجرنا ومزارعنا . فاذا اجبناهم اليوم الى ذلك فانهم لا يلبثون ان يطلبوا غداً طردنا منها ليستولوا عليها من دوننا

«فاعلموا ايها السادة انكم الان بازاء الطمع والحسد الاجتماعي لا بازاء مظالم بشرية كما يقولون . والويل لحكومتنا ولهيئتنا الاجتماعية اذا تركتموها تخضع للطمع والحسد . ولا ريب عندنا ان حرصكم على مصلحة وطنكم المرتبطة بمصلحة اهل المال والاعمال اشد ارتباط سيجعلكم تردّون دعوى العمال لا محالة

«ذلك انكم تذكرون ولا بدّ في هذا المقام اموراً عظيمة عليها تتوقف حياتنا وحياة بلادنا

---

(١) سبق البرلمان الانكليزي سائر الامم بتعيينه في العام الماضي ساعات العمل في المناجم ٨ ساعات فقط . وهذه المسألة يهتم بها العمال في كل مكان اهتماماً عظيماً . و ينكرها اصحاب الاعمال لانها تعطل اعمالهم

(الامر الاول) منزلة اهل المال في الهيئة الاجتماعية . فانكم تعلمون ايها السادة اننا مصدر ثروة البلاد وحياتها . فبتدبيرنا وسعينا ننشىء المتاجر الواسعة والمصانع العظيمة والمزارع الخصيبة وندرُّ على الامة بها اخلاف الثروة . ولو شئنا ان نحبس اموالنا ونقفل صناديقنا ونبطل سعينا لماتت الامة في سنة واحدة . والحكومة التي قراطيسها المالية في ايدينا تعرف ذلك حقّ المعرفة . وان قيل لكم ان العملة واهل العلم سبب هذه الثروة فاجيبوهم : لماذا اذاً لا يستغنون عنا و يتصرفون بهذه الثروة كما يشاؤون دون حاجةٍ الينا اذا كانوا صادقين . ولكنهم غير صادقين لانهم يبالغون في نسبة الفضل اليهم . فانهم بينما يكون الواحد منهم غائصاً في احلامه واوهامه يكون فكر الواحد منا حائماً حول متاجر الارض ومصانعها ينتش عن ثروة جديدة لبلاده . بينما يكون احدهم منهمكاً بكتابة مقالة على مائدته (حبر على ورق) او نظم شعر في غرفته (هباءٌ في الهواء) فان احدنا يُسمع الامة موسيقى اجمل من موسيقى الشعر و يريها جمالاً ابهى من جمال الادب : اعني به جمال الذهب الذي ينساب من صناديقنا قناطير قناطير و ينشر الراحة والسعة والخيرات في طبقات الامة كلها . فاذا كنتم ايها السادة في غنى عن هذه القوة التي لا تعادلها في الوجود قوة فاخبرونا ذلك ولا تخجلوا منا

(الامر الثاني) حفظ مركز الامة الصناعي والتجاري والزراعي . فانكم تعلمون ان المزاحمات الصناعية والتجارية قائمة في الدنيا على ساق وقدم . والنصر النصر في هذه المزاحمات لمن يصنع المصنوعات والبضائع بارخص الاثمان . فاذا حكمتم علينا بزيادة اجور العمال وتقليل مدة العمل او اشراكهم فيه كنتم كأنكم تحكمون باقفال معاملنا ومتاجرنا لاننا بعد ذلك لا نستطيع مزاحمة المعامل الاجنبية

(الامر الثالث) حفظ شرائعنا المقدسة حفظاً مطلقاً . فان حق الملكية حق مقدّس لا يجوز للحكومة مسه . ونحن بموجب هذه الشرائع مطلقو التصرف في املاكنا ومزارعنا ومتاجرنا . فاذا رامت الحكومة الضغط على حرية الملك نقضت الشريعة والنظام نقضاً يخشى منه بعد ذلك على اساس هيئتنا الاجتماعية

(الامر الرابع) ايقاف تيار الاشتراكية عند حده . فان هذه الآفة الكبرى قد عظم خطبها وجل امرها . ولذلك طريقتان بسيطتان (الاولى) امتناع الحكومة عن المداخلة بين العمال واصحاب الاعمال لان ذلك ليس من وظيفتها (والثانية) ابطال الحكومة جمعيات العملة اي عدم معرفتها اياها رسمياً ومنع مداخلتها بين العمال واصحاب الاموال . فان

الشرّ كل الشر وارد من هذه الجمعيات التي تحرض العملة وتغرر بهم بوعود باطلة . وهنا مهد الاشتراكية . اذ متى فرّقت الحكومة هذه الجمعيات استؤصلت جرثومة الاشتراكية لسقوط نيرها عن اعناق العمال المساكين وصار ارباب الاعمال يحلون مشاكلهم معهم بكل لطف وسلام

(فقهقه هنا بعض في صفوف العمال وصاح احدهم : هذا وعد الهرة للفأر ان لا تاكله) فقال زعيم اهل المال من غير ان يجاوبه

(والامر الخامس) هدم التجارة والصناعة والزراعة متى صار صاحب المعمل شريكاً لعمّاله . ذلك لان هذه الفنون المتشعبة العظيمة تقتضي وحدة الادارة واطلاق الارادة . فمتى كان صاحب المعمل مقيداً باراء عمّاله فقد خرب المعمل لا محالة وخمدت نار النشاط والاقدام الشخصي على الاعمال لان الفرد لا يعود يخاطر بماله ووقته وذكائه من اجل غيره

(والامر السادس) ان تذكروا ايها السادة ان حكومة بلاد كبلادنا لا يليق ان تُبنى على الاوهام والاحلام وُيلقى زمامها الى اصحاب التصورات والتخيلات . ان المخلوقات كلها قد خلقها الله طبقات مختلفة . ففيها القوي والضعيف والكبير والصغير والخامل والنبيه . وما الاشتراكية التي تحاول جعل جميع الناس متساوين الاّ وهم وخيال . فهي تطلب مثلاً ان توزّع ثروة الدنيا واراضيها على جميع البشر بالسواء حتى لا يكون فيهم فقير وغني بل يكونوا كلهم في مرتبة واحدة . فهل سمعت خرافة كهذه الخرافة : وهب اننا وزعنا اموال الدنيا واراضيها بين الناس بالسواء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة ان الكسالى والجهلاء والضعفاء والخاملين والمسرفين ينفقون اموالهم ويبيعون اراضيهم بعد مدة وجيزة فيحصرها ويستولي عليها المجتهدون والمقتصدون واهل الذكاء والتدبير . وحينئذ تعود الحالة الى ما هي عليه اليوم ونرجع الى ما نحن فيه . فهل تريدون ضعضعة اساس الهيئة الاجتماعية من اجل تجربةٍ كل التاريخ البشري في الارض يشهد بفسادها . كلا . لا تخالفوا نواميس الاجتماع والطبيعة نفسها . ان نواميس الطبيعة الثابتة تُثبت هذا الامتياز بين المخلوقات . ولذلك يأكل قوي الحيوانات ضعيفها . اية قوة في العالم نقدر ان تساوي بين الذئب والحمَل والهرّة والفأر والبازي والعصفور . اية قوة نقدر ان تنقض ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل في الارض . ان هذا الناموس وحده كافٍ لنقض مذهب الاشتراكية . ففي الحياة طبيعياً واجتماعياً وسياسياً القوي يقوم والضعيف يسقط . وهذا سبب انقراض كثير من الامم وقيام كثير من الشعوب . فمن اراد جرّ القوي من طبقته وانزاله ليساوي

بينه و بين الضعيف كان كمن يهدم قوة الهيئة الاجتماعية ويجعل جميع افرادها ضعفاء خاملين بحجة المساواة بينهم »

«ولقد ختم نائب العمال كلامه بذكر كارل ماركس و بتهديده لنا. فنحن نشك في رضائكم عن هذه المبادئ لانكم تعلمون عقباها . انكم لا تجهلون ان دعامة مذهب كارل ماركس اعتقاده بان الحكومات لا يمكن ان تهب الشعب والعمال من تلقاء نفسها حق الاستيلاء على مرافق الامة ومنافعها لان رجال هذه الحكومات من اهل المال الذين هم في رأيه اعداء للعمال . ولذلك يوجب على الشعب ان يغتنم احدى الفرص و يهاجم الحكومة و يستولي عليها . و بعد ذلك يتصرف بها طبقاً لمصلحته من جعل المعامل والمتاجر والمصانع والمزارع ملكاً للامة نفسها واعطاء اصحابها تعويضاً عنها . فاذا كانت هذه مبادئهم ايها السادة فما هذا التحكيم والرغبة في المسالمة الا رياء لا ينطلي محاله علينا

«فهم استحلفوكم ايها السادة باسم الاخاء الانساني ان تجيبوهم الى طلبهم اما نحن فنستحلفكم باسم دستورنا وعمران بلادنا ومستقبل امتنا وشرف صيت حكومتنا عند الامم ان تردوا هذا الطلب »

وما جلس زعيم اهل المال في مجلسه حتى اضطربت صفوف العمال وصفوف اهل العلم المجاورة لها . ثم انفرد احد رجال العلم وقام . فشخصت اليه جميع الانظار واشرقت وجوه العملة لانه كان معروفاً عندهم . فابتدأ هذا الخطيب خطابه قائلاً

دعوى اهل العلم

ايها السادة

« كان في نيتي ان لا اتكلم اليوم بل غداً ولذلك سمعت كثيراً من الاقوال والمزاعم التي تقتضي الرد دون ان تتحرك نفسي للرد عليها . غير ان كلمة واحدة لفظها خطيب اخواننا اهل المال في آخر مقاله اثارت نفسي للكلام رغما عنها

«فهو ايها السادة استحلفكم في آخر خطابه « بمستقبل امتنا » ان لا تجيبوا الشعب الى ما طلب من مشاركة اصحاب الاعمال في اعمالهم . فهذا الاستحلاف « بالمستقبل » امر مدهش ايها السادة في مسألة كهذه المسألة . المستقبل؟ بالله دعوا المستقبل لله . وهل تعتقدون حقيقة ان الانسانية ستكون في المستقبل على ما هي عليه اليوم من الشقاء . اتصدقون ان اكثرية البشر سيبقون في المستقبل عبيداً وخدّاماً للاقلية . ايدخل في تصديقكم ان الشعوب ستبقى ضعيفة ضئيلة تحت نير الاجتماع اقوياؤها يموتون ضنىً وجهاداً في هذه الحياة

لانهم لا يكادون يقدرون على تحصيل رزقهم ورزق اولادهم وضعفاؤها يموتون جوعاً وبرداً في الشوارع والاسواق وعاجزوها يعاملون معاملة الكلاب ـ بينما افراد قليلون في المدينة يجمعون قناطير الاموال

« اذا كنتم تعتقدون حقيقةً بذلك فقد انكرتم الله وجحدتم العدالة وقررتم الاباحة وبررتم قول من يقول : بطون تدفع وارض تبلع فلا نظام ولا ناموس

فصاح حينئذ واحد من صفوف رجال الدين

ـ هذا قول بارد . فان الانسان حرٌّ . وله ان يتصرف بحريته كما يشاء . ولذلك كان مسئولاً عن اعماله . وما الحيلة بسنة تنازع البقاء

فاستشاط الخطيب حينئذ وصاح مخاطباً فريق الدين

ـ لله ما اجهلكم

فاجابه ذاك

ـ لله ما احمقكم

فقال الخطيب :

ـ نعم نحن نحمق من جهلكم . أَلا تعلمون ان سنَّة تنازع البقاء هذه سنة وحشية تناقض كل سنة دينية . أَلا تعلمون ان السنة الدينية ما وضعت الا لمقاومتها . أَلا تعلمون ان رجال الدين اذا قالوا بها كانوا كانهم ينتحرون وينحرون مبادئهم

« سنَّة تنازع البقاء معناها ان كل واحد من البشر يسعى لنفسه ويجاهد رفيقه ليستأثر بالمنافع والخيرات دونه . وتكون خاتمة هذا الجهاد ان الاقوى يكون الفائز . والضعيف يُغلب ولا بأس ان يموت ايضاً لان الهيئة الاجتماعية في غنى عنه . وبعض المتقدمين كانوا يقتلون اطفالهم الضعفاء وفقاً لناموس بقاء الافضل . فهذه الحالة هي حالة الحيوانات تماماً ايها السادة . كذا تحيي وتعيش وتموت وتنمو او تنقرض . فهل صار من فخرنا في تمدننا هذا ان نقتدي بالحيوانات في معيشتها الدنيئة

« فمبدأُ تنازع البقاء وبقاء الافضل مبدأ فظيع وحشي يهدم كل ما بنته الاديان وكل ما وضعه الفلاسفة وعلماء الآداب في الارض . اذ ما الفائدة من مراعاة الآداب والفضائل ما دامت الطبيعة تسنُّ ان للقوي ان يتمتع بكل قواه . ولماذا توضع الحدود والشرائع لكف الناس اذاهم بعضهم عن بعض ما دام القوي معذوراً في اعتدائه لانه يعمل وفقاً للناموس الطبيعي . ولماذا تكذب الاديان وتحثنا على الخير والبر والرفق والزهد والوئام والسلام مادام

كل هذا مخالفاً لناموس تنازع البقاء والكلمة العليا هي لهذا الناموس دائماً . اليس ذلك بمثابة غش للضعفاء من اجل منفعة الاقوياء

« فرحماكم لا تخلطوا بين الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية . ان تنازع البقاء وبقاء الافضل امران صحيحان في الحاله الطبيعية . وهنالك لا مرد لهذين الناموسين الهائلين . لذلك يأكل القوي الضعيف ويسحق الكبير الصغير كما تصنع الحيوانات الوحشية . اما في الاجتماع فان الحالة تختلف كل الاختلاف . ذلك ان الحكومة قد اخذت على نفسها من حين عزم البشر على الاجتماع والمعيشة معاً في مدينة واحدة « ان ترفع ظلم القوي عن الضعيف وتمدّ الضعيف بالقوة ليعيش بامن وسلام » وهذا ميثاق معقود بين الحكومة والناس . وبموجبه يعيش في المدن جنباً الى جنب الاقوياء والضعفاء . الاغنياء والفقراء . المرضى والاصحاء . فلزم عن هذا اذاً ان يكون للحكومة حق التداخل لرفع ظلم القوي عن عنق الضعيف كلما شكا الضعيف من الظلم . اي ان وظيفة الحكومة الاصلية التي اعطت على نفسها بها عهداً انما هي حماية الضعفاء من الاقوياء : اي مقارمة ناموس تنازع البقاء

« فعلى الحكومة اذاً لا ان تُنزل الاقوياء من طبقتهم لمساواتهم بالضعفاء بل ان ترفع الضعفاء من طبقاتهم لمساواتهم بالاقوياء . وهذا امر ممكن وذلك بالتعليم والتدريب والمساعدة . ومتى حصل هذا وصار جميع افراد الشعب اقوياء بتربيتهم العمومية سقطت حجة الذين يقولون ان البشر نبيه وخامل . وانه لا بدّ من تسلط الاول على الثاني كما قال الخطيب

هذا ما نسميه اصلاح ظلم الطبيعة . على اننا لو كنا حيوانات ضارية نعيش في واسع البر لكان من المحتمل ان نترك الطبيعة تفعل فعلها الذي يحلو لها

« ولكنني اؤكد لكم اننا لو كنا نعيش في الطبيعة كالحيوانات لما عاش بيننا كثيرون مثل نيوتن . فان هذا النابغة كان ضعيفاً في صباه الى درجة الموت . ولم يعش الا بعناية امه وعناية الله . ولو عاش بين الاسبرطيين مثلاً لكانوا قتلوه لانه ضعيف لا يجدي نفعاً فذهب ضحية ناموس بقاء الافضل وتنازع البقاء . وانتم تعلمون كيف قلب هذا الرجل العلم باكتشافاته العظيمة . وذلك يثبت انّ ناموس بقاء الافضل وتنازع البقاء قد يكون احياناً ضد ناموس العمران (١)

« بقي بعد هذا ان نسأل : ماذا يصنع الشعب بعد ان يقوى ويتعلم ويتدرّب ؟ هل

---

(١) لان الفضل في الطبيعة والقوة هي القوة البدنية التي عليها مدار ناموس تنازع البقاء و بقاء الافضل . واما في الاجتماع فقد تغيرت هذه القوة وصارت عقلية .

يعود للاستخدام كالرقيق ام يذهب ويستخدم هو نفسه بعضاً من اخوانه بني الانسان ويكون سيداً عليهم فيعمل بذلك عملاً كان هو نفسه يشكو منه — لا هذا ولا ذاك بل على الحكومة حينئذ ان تسهل معاملة ومصانعه ومتاجره ومزارعه . اي ان تشغله فيها تحت ادارتها هي ومراقبتها . وتوزع ارباحها عليه . وفي شيخوخته تعين له راتباً صغيراً يكفيه حتى لا يموت جوعاً : هذه كل مطاليبهم ايها السادة . فاذا عرضنا هذه المطاليب على بدوي ساذج لم يدخل المدن قط لاستغرب ان يوجد بين البشر قوم ينكرونها

« يقولون ان حق الملكية لا ينقض . ولكن لماذا تنقضه الحكومة يوم تقرر نزع ملكية الاراضي والاملاك التي تحتاج اليها في مقابلة تعويض تعطيه لاصحابها . فالمعامل والمصانع والمتاجر والمزارع تنزع ملكيتها ويعطى اصحابها تعويضاً عنها

« يقولون انه اذا قسمت الاموال والاملاك بين الناس على السواء فانها تعود تجتمع في ايدي المدبرين المقتصدين . نقول ليس احد يطلب قسمتها بالسواء فان هذا وهم وافتراء علينا وعلى العمال . وانما نطلب وقف المصانع والمزارع والمتاجر والمعامل للامة وقفاً لا يجوز بيعه وشراءه لانه للجمهور . وليس يجوز للجمهور ان يتمتع بسوى ريعه . وتكون الحكومة الوكيلة العظمى لهذا الوقف العظيم

« يقولون ان ذلك يضعف الهيئة الاجتماعية لانه يجعل الاقوياء ضعفاء . نقول بل بالعكس انه يقوّي الهيئة الاجتماعية لانه يجعل الضعفاء اقوياء

« يقولون ان ذلك يهدم التجارة والزراعة والصناعة من قلة الاقدام حينئذٍ عليها وتقييد صاحب العمل بآراء عماله . نقول اذاً كيف تنجح المشروعات الكبرى التي تديرها الشركات الكبرى . والحكومة اليست حاضرة للمساعدة . وهل نجحت الاعمال التجارية والصناعية والزراعية من غير تنشيط الحكومات ومساعداتها .

« يقولون ان المتاجر تكسد لانها لا تعود قادرة على مزاحمة البضائع الاجنبية الرخيصة . نقول ان بضائعنا ترخص اثمانها حينئذٍ بدل ان تغلو لان الحكومة لا تطلب ربحاً منها تخزنه في صناديقها

« يقولون ان ذلك يضر بالحالة الحاضرة . فنقول ولكن هل تريدون ان نخون المستقبل ونؤخره حفظاً للحالة الحاضرة

« المستقبل . لقد عدنا للمستقبل . اننا نريد في المستقبل حياة افضل من حياتنا الآن . فان اعصاب الانسانية الآن كلها متوترة متهيجة . كل واحد لا يأتمن اخاه على

اقل الاشياء . كل واحد يحذر اخاه حذره من الذئاب الضارية . وما ذلك الاّ لذلك المبداء الملعون الذي انبث في نفوسنا وهو مبداء تنازع البقـاء مبداء طلب الفائدة للذات بكل الطرق وان اضرّ ذلك بالغير ضرراً عظيماً . فنحن نريد بدل هذه الانسانية المضطربة المتشنجة انسانية هادئة مطمأنة متمتعة بامن وسلام بنعم الارض والسماء . وهذا لا يتمّ مع النظام الحاضر والحالة الحاضرة لان الانسان لا تهدأ نفسه ويسكن جاشه وتتلطف اخلاقه الا اذا صار امينًا على رزقه . ولا امن على الرزق ما دام الاقوياء متروكين على الضعفاء يمتصون دماءهم والضعفاء يزمجرون ويزبدون في سرّهم حسداً وطلباً للنقمة

« ولقد سمعت الخطيب الثاني يتهكم على العلم واهله ويقول ان اهل المال هم المحسنون الى الهيئة الاجتماعية بقناطيرهم الذهبية . فهذه دعوى غريبة لانني كنت اظن ان المال يسمم الآن هيئتنا الاجتماعية تسميماً

« وليس سبب هذا السم المال نفسه ولكن الطريقة التي يُستعمل بها . فان طلاب المال لا غرض لهم في مصانعهم ومتاجرهم ومزارعهم سوى « ربح اكثر ما يمكن ربحه بكل الطرق » ولذلك نظلمهم اذا اردنا وضع قواعد ادبية ورمنا منهم حفظها في معاملاتهم . ان طلب المال والادب لا يجتمعان . ولذلك قيل « لا يُعبد ربان : الله والمال » ـ وهذا بخلاف ما لو كانت تلك المصانع والمزارع والمتاجر في ايدي الحكومة . فانه لما كان اساس كل حكومة عادلة الفضيلة المطلقة وكان غرضها حماية الضعفاء لا جمع المال فانها تنبو بالطبع عن الروح التجاري الافرادي الذي يسمم الهيئة الاجتماعية اليوم ويبثّ فيها روح الفساد بدل روح الاصلاح والاحسان الذي اشار الخطيب اليه

« وروح الفساد هذا ظاهر في كل مكان . فان النفوس اليوم لم تعد تعرف نظاماً غير الذهب ولا فضلاً لغير الذهب ولا قيمة لغير الذهب . انظروا الى اعمالهم لا تجدوا لها غرضاً غير جمع الذهب والظمأ الى الذهب . ولذلك صار كل شيء يُشترى ويباع عندهم بالذهب . فالاستقامة والامانة : كلام فارغ لان المقصود جمع الذهب . الآداب والفضائل : حلية العاجزين لان الحلية الحقيقية حلية الذهب . الضمير والذمة والشرف والمبادئ الازلية والرفق بالناس ومحبة القريب وصنع الخير والله : دعنا منها كلها فما هي الا حبائل نصبها الساسة والشارعون لاخضاع الشعوب والحقيقة ان كل شيء دون الذهب . ـ فما هذه الحالة الهائلة التي ترتعد منها فرائص الانسانية ايها السادة . هذه هي جهنم الحقيقية . هذه هي الهاوية السافلة التي يلقون فيها كل ما هو محبوب وكل ما هو مقدس وكل ما هو جميل وكل

ما هو عزيز عندنا . وهم يسمون هذا الامر سعة وثروة وخيرات ونعماً . واما انا فاسميها : فظاعة وجنوناً وهوساً و شراهة ونهماً وقبضاً على الهواء

« وقد قلت « قبضاً على الهواء » لان طالب الذهب يرى وهو على فراش الموت في يومه الاخير في ساعته الاخيرة انه سعى وتعب وجدّ عبثاً . اذ ماذا عمل ؟ واي فائدة له مما جناه؟ هل كان يأكل كل يوم الف كبش كما تهكم عليه اليازجي ام كان يكتفي بكسرة من الخبز وقطعة من اللحم كما كان يا كل جاره الفقير . وما يعمل اولاده بتلك القناطير المقنطرة التي تركها لهم . هل ترى جمعها قطعة قطعة من كل طريق وبكل الوسائط ومن كل الجيوب لكي يرى عدم فائدتها في ساعته الاخيرة وعجزه عن اخذ شيء منها معه — وحينئذ يتمثل له الاشخاص الذين امتصها منهم في حياته والدموع التي جرت من بعضهم والغضب الذي ثار في بعضهم والعرق الذي انصب من بعضهم في سبيل خدمته فيرى ان حياته كانت حملاً ثقيلاً على البشر . وفي هذه اللحظة الاخيرة يفهم معنى قول الماليّ المشهور كارنجي غريبة الغرب « سيأتي يوم يكون فيه كل غني يموت دون ان يفرّق امواله موصوماً عند الناس بوصمة العار » فيغطي حينئذ عينيه بيديه ويقول : لم يبقَ لي غير رحمة الله . ولكن الله لا يرحمه الا اذا كان يهب في تلك اللحظة نصف ماله للفقراء والمساكين : اي ان يعيد نصف ماله للامة التي اخذه منها . — وعلى خلاف ذلك من لا يجعل غرضه في حياته مقصوراً على جمع المال بل يطلب غرضاً اشرف موافقاً لمصلحته ومصلحة الهيئة التي يعيش فيها معاً

« وهذا الغرض الاشرف هو حفظ النظام في الارض والمساعدة على حفظه . فان البشر لا يمكن ان يعيشوا براحة في الارض من غير شرائع تحكمهم . وهذه الشرائع منها سياسي وديني واجتماعي وادبي . ومجموعها نسميه « النظام » اي الشريعة المطلقة التي تدخل فيها كل الشرائع . وحفظ النظام اول ما يجب على الانسان الذي يستحق ان يُسمى انساناً . وكل من يخرق هذا النظام يخرج عن حدود الانسانية . ولكن كيف يُخرق هذا النظام ؟ يُخرق بطرق عديدة . فالصانع الذي يغش صناعته والزارع الذي يغش زراعته والتاجر الذي يغش تجارته انما يخرقون ذلك النظام لانهم يخدعون اخوانهم بني البشر ليربحوا منهم اكثر مما اعتادوا ربحه . وصاحب العمل الذي يستخدم العمال في عمله باجرة قليلة بالنسبة الى ربحه وصاحب الاموال الذي يضايق مديونيه والسيّد الذي يسيء في معاملة مسوده لانه لا يعظمه بقدر ما يريد ان يُعظَّم — كل هؤلاء ايضاً يخرقون حرمة النظام الاجتماعي لان الرفق والرأفة اساس هذا النظام . فانتم ترون ان « حفظ النظام » و « جمع

المال » نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يأتلفان . فاين ما قاله الخطيب من ان الهيئة الاجتماعية لا تستغني عن اهل المال

« كلا ثم كلا . ان الهيئة الاجتماعية تحتاج الى المال لا الى اهل المال . والمال متى عاد الى صندوقه الحقيقي انحصر في يد الحكومة . اما الذين لا يمكن للهيئة الاجتماعية ان تستغني عنهم فهم اهل العلم . هم حفظة هذا النظام الذين نشير اليه . هم الذين يطرحون انفسهم بين الانسانية المقتتلة على حطام الدنيا وخز عبلاتها ليسمعوها كلمة المحبة والرفق والالفة ويذكّروها بزوال هذه الاباطيل . هم الذين يولدون فقراء ويعيشون فقراء مفتخرين بفقرهم لان قناطير الاموال التي تُجمع في الصناديق انما تُجمع من دماء بني جنسهم اما من التسفل لاقويائهم او الضغط على ضعفائهم . هم الذين تراهم مع فقرهم هذا مكتفين قنوعين يستنشقون براحة وهناء هواء جوّهم النقي من جراثيم الرذائل والفظائع التي تسمم جوّ غيرهم . هم الذين يطبقون اعمالهم على اقوالهم فلا يظلمون ولا يخدعون ولا يتسفّلون . فكأنهم اعمدة شامخة نصبها الله بيده الازلية في هذه الارض ونقش عليها فضائل اديانه بكتابات جديدة وطرق جديدة بعد ان فسدت الاعمدة الاولى التي نقشها عليها اولاً بفساد قلوب الرجال الذين كانوا يحرسونها

« هذا ما يُقال في العلم حافظ « النظام المطلق » في الارض . بقطع النظر عما كان له من الفوائد العملية كالاكتشافات والاختراعات التي احيت التجارة والصناعة والزراعة ولولاه لما كانت الآن على جزء من تقدمها الحاضر

« فمن الغريب ان يهاجمنا اهل المال وينكروا فضل العلم ونعمته بعد كل ما صنعه العلم للهيئة الاجتماعية

« اما حكمكم في مشاكلنا هذه ايها السادة فليكن كما تشاؤن ولكن علينا ان نذكركم بان الدنيا كلها تنتظر حكمكم بشوق شديد لترى الى اي درجة وصل العدل في الكرة الارضية »

ولما جلس الخطيب تزحزح الشيخ الرئيس ونظر في ساعته ثم قال بصوت جهوري

ـ اني مسرور لاننا سمعنا اقوال الخطباء الثلاثة بكل هدوء وسكينة . فهل ترون ان نتباحث الآن فيها

فنهض واحد من فريق رجال الدين وقال

ـ بل ارجو ان نترك البحث في كل المشاكل الى ما بعد سماع اقوال باقي الخطباء

فهزّ بعض من فريق العلم رؤوسهم لانهم علموا ان هذه حيلة عليهم وقال الشيخ الرئيس اذاً نعقد غداً الجلسة الثانية